العدد (1357) الخميس (30) تشرين الاول 2008
ملحق شهري يصدر عن مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

حسين مردان... شاعر الدهشة ورجل المفاجآت

((فجأة قررت هجر المدرسة والتوجه إلى بغداد .. كنت حينذاك في العشرين من عمري ، كتلة نار وسيوف .. وتلقفني شارع الرشيد .. البساتين الملونة والزجاج .. وقلت لنفسي من هذا الرصيف الرمادي ستبدأ مسيرتي الصعبة نحو قمة الجبل)).

صباح الانباري

كان شارع الرشيد ، يوم ذاك ، يضم أكبر المقاهي الثقافية في بغداد .. مقهى حسن عجمي .. مقهى الزهاوي .. مقهى البرلمان .. المقهى البرازيلي ، و كانت هذه المقاهي جميعا تشكل بؤرا لتجمع المثقفين والفنانين والأدباء .. ولقد شهد هذا الشارع العريق اضخم التظاهرات السياسية والمسيرات السلمية والمصادمات الدموية حتى صار بحق مشهدا حقيقيا للواقع اليومي العراقي.. على هذا الشارع حط حسين مردان رحاله تاركا وراءه ، في مدينته بعقوبة ، جرحا لم ولن يندمل طوال حياته .. حبا حقيقيا ملك عليه نفسه وغار في أعماقه ومد جذوره في أغواره البعيدة .. حبا شاء قدر مردان أن يكون من طرف واحد .. وتمنى أن يحظى ولو بلقاء واحد حتى وهو على فراش الموت ليؤكد لذاته أن الحب لن يموت لكن القدر لم يمهله كثيرا .. لقد اقتحم مردان وهو الشاب المتوقد نشاطا وحكمة و أدبا مقاهي الرشيد الثقافية ممتلئا بالحيوية والثقة العالية بالنفس معلنا نفسه دكتاتورا على نفسه فاسقط عنها الأقنعة ليبدو عاريا تماما ، من كل زيف .. وليؤكد رؤيته بلا مجاملة ولا تزلف ولا مقدمات ، و هكذا كتب قصائده العارية لتكون تعبيرا دقيقا وصادقا عن الرذيلة التي لا يخشى طرحها كما هي في الواقع وتلك جرأة لم يبلغها أحد .. لقد كانت (قصائد عارية) بداية رؤيته الواضحة بأهمية الصورة التي يرسمها للواقع وما يعتورها من قسوة سياسية واجتماعية .. أن (قصائد عارية) تمثل ، في حقيقة الأمر ، وعيا متقدما لمردان وتيارا أدبيا جديدا في أخلاقياته متجاوزا السائد والتقليدي .. لقد أحدثت قصائد عارية ضجة في الأوساط الأدبية والسياسية دفعت مبدعها إلى المحاكم والسجن .. لقد ظلت الأجيال التي أعقبت جيله تنظر إلى ديوانه (قصائد عارية) على انه الديوان المتفرد والمتميز بين دواوين تلك المرحلة وقد تفوق به حتى على بقية دواوينه الأخرى .. ذكرت في مقال لي عام ١٩٧١ في مجلة الثقافة العدد الخامس انه (يمكن اعتبار ديوان .قصائد عارية أهم ديوان شعري صدر للشاعر ففيه يبدو صوت الشاعر في عنفوان غضبه وانفعالاته .....)) وقد اخطأ من وقف ضده مدعيا تسفيهه مكارم الأخلاق وتعرضه الفاحش للنساء وتعليقه لغرائزه على شماعات العذارى والحسان .. لقد كان حسين مردان مؤدبا مهذبا أمام كل النساء اللواتي عرفهن ولم يتذكر اقرب أصدقائه ،الشاعر الراحل رشدي العامل ، انه تفوه بأي كلمة نابية أمامهن .. كان يريد فقط أن تتحرر المرأة من ((أقمطة التقاليد . والعادات القبلية)) لا أن تتظاهر تظاهرا فارغا بالجرأة والشجاعة والتحرر من اسر مثالية قبيحة .

لقد هجر حسين مردان مدينته بعقوبة ليلقي خطابه الشعري والأدبي في بغداد وكان هاجسه الإبداع حسب .. ولم يكن ليهتم بأموره الأخرى .. كيف يأكل .. كيف ينام .. لا يهمه ذلك وهو الذي كان يذرع شوارع بغداد جيئة و ذهابا حتى مطلع الفجر .. وإذ يلح عليه النعاس الشديد نهارا فانه يلقي بجسده في إحدى البساتين ليأخذ قسطا من راحة فعشق حياة التشرد والشوارع وربما حكم عليه بالسجن لهذا السبب وكان طوال حياته لا يخشى أن تطلق عليه صفة التشرد أبدا فقد أطلقها على نفسه باعتداد كبير .. يقول عن نفسه انه ((رجل الشارع المتشرد الجائع المتطرف في الشعر والحياة)) وتطرفه في الشعر نابع من رغبة حقيقة في التحرر من الوزن والقافية وتجديد المضمون فكتب عددا كبيرا من القصائد المتحررة أطلق عليها تسمية (النثر المركز) حسما للمعارك التي كانت تدور رحاها حول تسميتها قصيدة النثر أو النثر المشعور أو الشعر المنثور ..... الخ .. وديوانه (الربيع والجوع) حافل بذلك الجنس الشعري الجديد .. ولمردان باع طويل في استخدام المفردة العامية التي يعتقد أنها تحمل دفقا كبيرا من الحياة والحيوية والحركة والتأثير .. فمفردة (طابوحة) على سبيل المثال لا الحصر ، وهي ذلك الكائن الصغير المضيء المحلق في فضائنا الذي لا نملك إلا ملاحقته ومحاولة الظفر به أو كما يشير مردان محاولة إسقاط الظل عليه للاستئثار به ، لا تدانيها مفردة من الفصيح يمكن أن يعكس مدلولها حال المرأة والمصير الذي ستؤول إليه .. يقول مردان بهذا الخصوص : ((أريد هنا أن أقول أن بعض الكلمات الفصحى قد فقدت معظم حيويتها وخمدت فيها الحركة ، فهي أشبه بكرات من زجاج كثيف لا ينبعث منه أي شعاع أو طراوة في الوقت الذي تجد فيه بعض الكلمات العامية تحتفظ في داخلها بكمية كبيرة من التدفق اللوني واللهب المشرق والموسيقى الحارة)).

في طراز خاص فاجأ مردان الأوساط الثقافية والأدبية باستخدامه تلك المفردات العامية التي بدت للجميع ، اكثر عمقا و أدق تعبيرا من مفردات الفصحى . وفاجأ تلك الأوساط أيضا في مسالة النظر إلى المرأة .. ففي طرازه الخاص لم تعد المرأة عنده الجارية والعاشقة والمومس بل المناضلة والعاملة والكادحة .. إنها على العموم تمثل مرحلة أخرى من مراحل الشاعر الذي قذف بنفسه ، في هذه المرحلة ، في خضم المعارك السياسية ، لقد كان مردان جادا وساخرا في كل خطوة وضعها على طريق مسيرته الحافلة بالشعر والحياة والمفاجآت والنكبات . فهو بحق سيد النكتة وخالقها الذي لا يضارع وهو الأمير الشرقي الذي خانته جواريه وتخلى عنه فرسانه .. و الطفل العاري الكبير الأكثر براءة في عالم الشر و الخبث وهو شاعر الدهشة ورجل المفاجآت الكبيرة .

كان حسين مردان متمكنا من الكلمة . والتعبير عنده ينثال كشلال هادر وجميل .. يرتجل المعاني بجرأة وحماسة وتفوق لا يضاهى ففي عام ١٩٤٨ م عندما نهض الشعب العراقي منتفضا ضد معاهدة (بورتسموث) اشترك مردان في التظاهرات التي كانت تهدر في شوارع بعقوبة يقول في مذكراته عن ذلك الحدث الجلل :

((لم يكن يشدني في ذلك الوقت أي خيط عملي بأي شكل من أشكال السياسة . وكان معظم أهالي مدينتي يعتقدون بأنني نصف مخبول. فقد كان شعري الطويل يشبه شعور الهيبيين محل نقمة و سخرية من قبل الكبار والصغار على السو اء ولست ادري ما الذي جعل بعضهم يطلب أن القي كلمة في المتظاهرين . ربما لأنه لم يكن بين الجموع من يوحي منظره بقدرته على إلقاء خطاب مناسب . ولكن خيل لي في تلك اللحظات المنعشة بالنسبة لأعصابي الباردة ، انهم يريدون تجربة هذا المجنون الذي يدعي العبقرية ! وقد برهنت على جنوني فعلا ، فقمت ازرع الفضاء بجمل نارية لا ينطق بها إلا من كان يحلم بشرف التفاف الحبل حول عنقه ... وهكذا أصبحت الخطيب الأول لتظاهرة ذلك اليوم)).

بعد هذه الخطبة طاردته الشرطة من مكان الى مكان وسيق الى المحكمة وصار له مع المحاكم علاقة دامت ست محاكمات غريبة ومدهشة .. لقد ظل مردان طوال حياته وخلافا لما يظنه بعض ، الدارسين مرتبطا بمدينته بعقوبة بحبل سري يشده اليها أبدا ، ذلك هو الحب الكبير لفتاة أحلامه وبطلة قصائده ومحركة وجدانه ومشاعره الجياشة .. المرأة التي احبها من طرفه ولم تشعر بحبه يوما .. غير أن القلب الذي ظل ينبض بحبها طوال ما يربو على الربع قرن من الزمن أحنته الحياة و أتعبته الأيام بفعل رتابة دقاقة فراح يبطئ من سرعتها شيئا فشيئا وشيئا فشيئا ألقت بمردان على فراش الموت فتمنى زيارتها له ولو لمرة واحدة .. لكنها حتى بعد أن اعلموها برغبته في رؤيتها للمرة الأخيرة بخلت عليه بتلك النظرة فمضى (أبو علي) وحيدا حزينا إلى العالم الآخر .. مكفنا بقصائده العارية ومسجى على بساط مطرز بمئات المقالات والكتابات المثيرة .. لقد رحل مردان والمدهش في رحيله انه تنبأ بذلك الرحيل قبل حدوثه بمدة قصيرة :

((أنا اعرف نهايتي فغدا سأموت بسكون كما تموت الأشجار القديمة في اعماق الغابات.. سأموت الى الابد)).

وما كادت تلك الدقائق القصيرة تنقضي حتى رحل مردان مغمضا عينيه اغماضتهما الأخيرة في ١٠/٤ / ١٩٧٢ .

الوقائع المثيرة لمحاكمة الشاعر حسين مردان

ثائر القريشي

> في اليوم السادس والعشرين من شهر حزيران ١٩٥٠ عقدت محكمة جزاء بغداد الاولى جلستها الاولى لمحاكمة الشاعر حسين مردان عن ديوان"قصائد عارية" وقد جاء عدد كبير من الادباء الشباب الى ساحة المحكمة لمشاهدة هذه المحاكمة. من ثم توجه الحاكم الى المتهم ببعض الاسئلة وتولى الشاعر الرد عليها

في اليوم السادس والعشرين من شهر حزيران ١٩٥٠ عقدت محكمة جزاء بغداد الاولى جلستها الاولى لمحاكمة الشاعر حسين مردان عن ديوان"قصائد عارية" وقد جاء عدد كبير من الادباء الشباب الى ساحة المحكمة لمشاهدة هذه المحاكمة. من ثم توجه الحاكم الى المتهم ببعض الاسئلة وتولى الشاعر الرد عليها

وكان بينها سؤال عن سر تسمية الشاعر ديوانه بـ"قصائد عارية" وقد رد على ذلك بقوله: ان الشاعر يحب ان يكون صريحاً في التعبير عما في نفسه، ولم أتوخ في قصائدي الا اظهار الحقائق عارية ليتبينها الناس.

ثم توجه الحاكم بسؤال عما اذا كان في الادب العربي القديم أكثر صراحة في مثل هذا الموضوع فعدد له الشاعر المتهم بعض الأمثلة.. ثم اجلت المحاكمة.

وفي الجلسة الثانية استمعت المحكمة الى دفاع وكيل الشاعر المحامي صفاء الاورفه لي.الدفاع- سعادة حاكم جزاء بغداد المحترم:سيق موكلي حسين مردان الى محكمتكم الموقرة وفق المادة ٢٠٤ ق.ع.ب وذلك لنشره قصائد نشرت تحت اسم"قصائد عارية" ان فعل موكلي لا ينطبق عليه نص المادة ٢٠٤ وذلك لأن ما نشره موكلي ليس القصد منه نشر امور مخلة بالآداب بين الناس.ان موكلي رجل اديب ولكل أديب طابعه الخاص، فهناك من يريد نشر الفضيلة بذكر ما هية الفضيلة، وهناك من يرى ان نشر الفضيلة قد يكون بالتطرق الى الرذيلة، وأمامنا قصة"مدام بو فاري" لمؤلفها الكاتب الفرنسي الكبير"جوستاف فلوبير" فقد اثيرت هذه القضية امام القضاء، وادعى الادعاء العام انها قصة قصد مؤلفها عرض الرذيلة، الا ان القضاء العادل لم يأخذ بهذا الرأي.

وبعد ذلك قرر الحاكم ان تلجأ المحكمة الى لجنة ادبية من كبار ادباء العراق لغرض دراسة الديوان وتقديم تقرير عنه قبل صدور القرار. وقد جاء في تقرير كبار ادباء العراق ان الادب المكشوف فن كبقية الفنون، ولو لم يكن كذلك لما وجدناه يدرس في كليات الآداب للذكور والاناث على السواء. ولما وجدنا كتب الأدب العربي التي تدرس في مدارسنا تتطرق اليه وتذكر نماذج منه، ولما وجدنا في مكتبات العالم وفي مكتبتنا العامة دواوين شعراء الأدب المكشوف. كما قلنا ان الأدب المكشوف فن كما ان فن النحت فن وفن التصوير فن، واننا لنجد في أسواق العراق وأسواق العالم والبيوتات الراقية في العراق وغير العراق من اتجاه العالم تماثيل عارية وصوراً لأجسام عارية نحتها او رسمها نحاتون عالميون. فهل كان في كل ما ذكرت مخالفة للآداب العامة؟!.

وفي اليوم التاسع من شهر تموز عام ١٩٥٠ عقدت المحكمة جلستها الثالثة، وبعد تلاوة قرار اللجنة الأدبية قررت المحكمة الافراج عن الشاعر وديوانه.

القرار:لعدم توفر أركان الجريمة ضد المتهم السيد حسين مردان قررت المحكمة الافراج عنه وفق المادة"١٥٥" من قانون اصول المحاكمات وافهم علناً.

حاكم جزاء بغداد الاولى
١٩٥٠/٧/٢٦

بعد ان افرج عن الشاعر حسين مردان جاء في البرقية التي نشرت- في جريدة الهاتف- شيء جديد في الشعر العربي، وقد ظلت الصحف تكتب عن حياة الشاعر وديوانه الفصول الطوال لمدة سنة كاملة حتى ان جريدة"العالم العربي" تقدمت برجاء خاص الى الادباء والنقاد ان يكفوا عن الكتابة بشأن الشاعر وديوانه. وقد قام الأديب المحامي"طالب السامرائي" بتأليف كتاب عن محاكمة الشاعر وديوانه.

اما الشعر نفسه فلم يكن يهتم بكل ذلك فقد كان يبتسم لشاتميه بالطريقة نفسها التي كان يبتسم فيها للمعجبين به.

وفي سنة ١٩٥٠ طبع قصيدته"اللحن الأسود" في كراس خاص فصادرته الحكومة، وقدمت الشاعر الى المحكمة وافرج عنه ايضاً، وفي سنة ١٩٥١ أصدر كتابه"صور مرعبة" وهو نوع من النثر اطلق عليه المؤلف فيما بعد اسم"النثر المركز" حاول ان يصور فيه حياة الحشاشين ومتعاطي المخدرات، وفي نهاية ١٩٥١ طبع قصيدته"رجل الضباب" في كراس خاص. وفي سنة ١٩٥٢ اصدر رسالته"عزيزتي فلانة" وفي نهاية عام ١٩٥٢ اعتقل ثم قدم للمجلس العرفي العسكري فحكم بكفالة على ان لا ينشر كتاباً لمدة سنة واحدة، ولما لم يقدم الكفالة المطلوبة قضى سنة في السجن، وبعد خروجه من السجن عاد الى الاشتغال في الصحافة ثم أصدر كتاب"الربيع والجوع" ثم انصرف الى التأليف.

ويبقى سؤال يطرح نفسه..
من كان وراء محاكمة حسين مردان؟.

مؤلفات حسين مردان حسب تواريخ صدورها ..

١-قصائد عارية .. شعر عمودي ..وهو ديوانه الاول طبع في مطبعة المشرق بغداد ١٩٤٩ وقدم له الشاعر صفاء الحيدري .. وكان سعر النسخة الواحدة ٥٠ فلساً.. ثم الحق بها قصيدة اللحن الاسود التي طبعت في كراس منفصل عام ١٩٥٠ بمطبعة الرابطة مع قصائد عارية في طبعتها الثانية بغداد عام ١٩٥٥ مطبعة المعرفة

٢- رجل الضباب قصيدة عمودية .. ١٩٥٠ بغداد المطبعة العربية ..

٣-صور مرعبة .. نثر مركز .. ١٩٥١ بغداد

٤-العالم تنور .. نثر مركز ١٩٥٢ بغداد

٥- عزيزتي فلانة .. نثر مركز ١٩٥٢ بغداد

٦-الربيع والجوع .. نثر مركز .. ١٩٥٣ بغداد

٧-مقالات في النقد الادبي .. نقد ١٩٥٥ بغداد المطبعة العربية

٨-نشيد الانشاد .. نثر مركز ١٩٥٥ بغداد

٩-رسالة من شاعر الى فنان .. حسين مردان والرسام شاكر حسن السعيد ١٩٥٦ ..

١٠-الارجوحة هادئة الحبال .. ١٩٥٨ بغداد مطبعة الرابطة قام برسم صور الديوان الفنان جواد سليم ..

١١-هلاهل نحو الشمس .. نثر مركز بغداد ١٩٥٩ .. صورة الغلاف بريشة الفنان محمود صبري

١٢-اغصان الحديد .. شعر .. ١٩٦١ بغداد .. صور الغلاف والرسوم بريشة الفنان يحيى جواد .

١٣-الازهار تؤرق داخل الصاعقة.. مقالات .. ١٩٧٢ بغداد وزارة الاعلام

حسين مردان مع هيئة تحرير مجلة الف باء عام ١٩٧٠